مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

ملف حول

نقد بيداغوجية الادماج
التربية والقيم

العدد الثامن والأربعون - يوليوز 2011

الشباب والعنف الحضري
مقاربة سوسيولوجية

عبد اللطيف كداي/ أستاذ علم الاجتماع، كلية علوم التربية – الرباط-

لقد أظهرت الدراسات أن هناك ميلا متزايدا إلى العنف بالرغم من كون الاعتقاد السائد ظل يربط العنف بالمجتمعات البدائية والمتخلفة في إشارة واضحة إلى أن العنف من خاصيات المجتمع البدائي، وظل لصيقا بالأفراد والجماعات "غير المتحضرة" كأنه أسلوب حياة يميزها عن الجماعات المتحضرة، وفي ذلك نوع من الوصم الذي يصف به عدد من الباحثين في هذا المجال المجتمعات المتخلفة، بل امتد ذلك إلى الإنسان العادي خاصة في ظل التحولات التي يعرفها العالم اليوم في قضية ما يُعرف بالحرب على الإرهاب، باعتبار أن العنف ليس سوى الوجه الآخر للإرهاب.

ويمثل العنف الحضري إحدى المشكلات الأكثر سجالا بين الباحثين اليوم في مجالات فكرية متعددة، ولعله من بين المواضيع التي أضحت تشكل مادة خصبة للدراسات والأبحاث في مجال السوسيولوجيا و السيكولوجيا، وقد تتعدى ذلك إلى السياسة والاقتصاد والتربية خاصة عندما تقترن بمفهوم الشباب.

إن الحديث عن الشباب في ارتباطه بقضية العنف، والعنف الحضري على وجه الخصوص بات يشكل مسلمة «جدلية» في ظل التطورات التي يعرفها العالم اليوم، خاصة تلك التحولات التي تستهدف المنطقة العربية ومنها بطبيعة الحال الراهن المغربي بكل حمولاته وتجلياته السياسية والثقافية والاجتماعية...

يظل العنف بجميع أشكاله وتجلياته الظاهرة الأكثر بروزا في المجتمعات الإنسانية اليوم، ويتزايد الاهتمام به من قبل الباحثين والدارسين بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية، ولا يكاد يخلو ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية من تداول واسع النطاق لظاهرة العنف، ويدل ذلك حقيقة على تأصل الظاهرة، وعلى صعوبة تعديل أو تغيير هذا السلوك الإنساني بما يتوافق ومتطلبات العيش في المجتمعات المعاصرة.

قد لا يجادل أحد أن الاهتمام أو فكرة الاهتمام بالشباب اليوم تحتل موقعا متقدما في خطابات «الكل» لاسيما في ظل تنامي الوعي بالدور الحاسم لهذه الفئة في رسم معالم المجتمعات المعاصرة، هذا الوعي الذي ظل في العقود السابقة مجرد كليشهيات جاهزة للاحتواء أكثر منه مقاربة واقعية للوضع الشبابي.

إلى هنا تستدعي مقاربة الشباب اليوم في ارتباطه بقضايا العنف استحضار بعض البراديغمات التي ما فتئت تقدم الشباب كفاعل أساسي في كل ما هو سلبي، وكغائب وغير متفاعل في ما هو إيجابي وبناء، من منطلق أن الشباب يشكل «تهديدا» لقيم مجتمعات الراهنة ويهدف إلى «تقويض» الثوابت التي يتشكل منها صرح هذه المجتمعات.

وحتى يتسنى لنا مساءلة الوضع الشبابي في ارتباطه بقضية العنف لا بد لنا في البداية من تحديد بعض المنطلقات الأساسية لتعريف الشباب أولا، والعنف ثانيا لما قد يكتنف هذه المفاهيم من غموض.

1: في مقاربة مفهوم الشباب:

دأبت الدراسات في العلوم الإنسانية على الاشتغال على تحديد المفاهيم توخيا للحذر في استعمالها، وسعيا إلى حصر مجالاتها، بهدف الإبقاء على طابع النسبية الذي تنطوي عليه هذه المفاهيم عندما تستعمل بشكل فضفاض، ولعل مفهومي الشباب والعنف إحدى أكثر المفاهيم إثارة للجدل، فهما لا ينفكان يقدمان المزيد من الغموض حولهما لا سيما في استعمالاتهما اليومية، خاصة في ارتباطهما بحقل اشتغال المجتمع المدني والتوظيف السياسي والدولتي لهذين المفهومين بشكل مستفز أحيانا..

فما الذي نقصده تحديدا بالشباب؟ أية فئة عمرية؟ أي قواسم مشتركة؟ وأية أجرأة ممكنة للمفهوم؟

حظي مفهوم الشباب باهتمام العديد من علماء النفس والاجتماع كما تعددت محاولات وجهود المشتغلين مع الشباب لتوضيح ماهية الشباب، وتباينت إسهامات الباحثين في هذا المجال بين من يعتمد المعيار الزمني في تحديد هذا المفهوم أي العمر الزمني، ومنهم من يعتمد على طبيعة المميزات والحاجات والخصائص المميزة لهذه الفئة (البلوغ الجنسي، النمو الجسمي..).

ومع ذلك فإن المفهوم لا يزال يكتنفه الكثير من الغموض بالقدر الذي قد يبدو لنا واضحا بما فيه الكفاية، ما دام يعني فئة اجتماعية محددة، فمن حقل إلى آخر، ومن مجال إلى مجال،

يكتسي مفهوم الشباب معنى مختلفا، ودلالة ملتبسة، لكن الواضح في تعدد هذه المجالات هو أن الشباب يمثل مرحلة يكون فيها الإنسان قادرا ومستعدا على تقبل القيم والمعتقدات الجديدة، مرحلة تتسم بمطالب قد لا تتصل بإشباع حاجات أساسية معينة، ولكنها قد تمتد إلى المطالبة بإشباع حاجات اجتماعية وما قد يصاحبها من إعادة صياغة النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي برمته.

وبالرغم من كون الدلالات المرتبطة بكلمة «شباب» تبدو بديهية وبسيطة، إلاّ أن ضبطها وتحديد مفهومها هو أمر صعب في العلوم الاجتماعية، وكل محاولات التحديد هي إجرائية ولغايات منهجية محضة. فعلم النفس مثلا يعتمد في تحديده لفترة الشباب على طبيعة التطور السيكولوجي للأفراد في ارتباط بخصائص النمو لهذه الفترة، مما ولد زخما نظريا كبيرا في مقاربة مرحلة المراهقة وما يرافقها من تحولات عميقة. هذا في الوقت الذي يعتمد فيه علم الاجتماع في تعريف الشباب على ارتباط هذه المرحلة العمرية بمختلف التحولات التي يعرفها النسيج الاجتماعي، ومدى مساهمة هذه الشريحة الاجتماعية في مختلف الوقائع والظواهر الاجتماعية، سعيا منه في إبراز أهمية الإدماج الاجتماعي لهذه الفئة. وتركز علوم التربية على مراحل التنشئة الاجتماعية وتعاطي مؤسسات التنشئة مع خصائص الشباب وديناميكيتهم... في الوقت الذي تختص فيه البيولوجيا والطب على خصائص النمو العضوي والفزيولوجي...

ومن القضايا المثيرة للجدل فيما يتعلق بمفهوم الشباب هو المعيار الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1985 والذي يعتبر أن الشباب هم « الأفراد الذين تقع أعمارهم ما بين 15 إلى 24 سنة»[1] والذي لا يزال يستخدم إلى اليوم كمعيار معتمد دوليا في غالبية الدراسات والأبحاث والإحصائيات المتعلقة بالشباب، بالرغم مما أثاره من نقاش واسع حول مدى ملاءمته للواقع العملي المتنوع في مختلف دول العالم من جهة، واتساقه مع نصوص الاتفاقيات الدولية الأخرى من جهة ثانية، وهذا ما حدا بجامعة الدول العربية مثلا إلى اعتماد معيار زمني آخر لتحديد مفهوم الشباب برفع المدى العمري(15 -29) سنة ليكون أكثر انسجاما مع التركيبة الاجتماعية لواقع المجتمعات العربية[2].

وبالعودة إلى هذا التحديد سواء في صيغة الأمم المتحدة أو صيغة جامعة الدول العربية، يمكن الوقوف على بعض الإشكاليات، فعلى سبيل المثال تحدد الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل

---

1 - voir le site de nations unies : www.un.org/youth.

2- يراجع في هذا الشأن وثائق جامعة الدول العربية، إدارة السياسات السكانية والهجرة، القطاع الاجتماعي، قضايا الشباب العربي، 2007.

في مادتها الأولى سن الأطفال الذي يمتد إلى بلوغ 18 سنة كاملة. وهذا ما أجج النقاش الدولي الذي جرى سنة 1997 في شأن إعداد نص الاتفاقية رقم182 الخاصة بمنع أسوأ أشكال عمل الأطفال، حول الفرق في التعريف بين «الطفل» و«الشاب». مما دفع في اتجاه محاولة إعادة النظر في هذا التحديد، وقد تم التعبير عن ذلك صراحة خلال منتدى الشباب الدولي في «داكار» سنة 2001، حيث تقدمت العديد من الدول بطلب إلى الأمم المتحدة لإعادة النظر في تعريف الشباب، وبرفع الحد الأقصى للسن ليصل إلى 30 سنة، حتى يفي بمتطلبات تعريف الشباب خاصة في البلدان النامية.

ولا شك أن الهدف من إقرار نوع من المرونة في «التعريف» بالنسبة للشباب يتمثل في توسيع نطاق الحماية الاجتماعية، خاصة في المراحل الانتقالية للفرد من عالم الطفولة إلى عالم البالغين. بالإضافة إلى ذلك فإن عوامل ذات صلة مباشرة بعناصر سوسيولوجية واقتصادية وسياسية في مختلف المجتمعات تلعب دورا أساسيا في تعاملها المعياري والفعلي مع فئة الشباب.

وباعتقادنا فإن النقاش والجدال حول تحديد النطاق «العمري» لفئة الشباب، يعكس بالفعل دينامية وحركية هذه الفئة الاجتماعية، ويدفعنا إلى تجنب النظرة الجامدة لها بوصفها قالب «عمري» منسجم وموحد يمكن التعامل معه وفق أسلوب واحد فقط. هناك «فئات مختلفة» داخل «فئة» الشباب، و«مراحل تحول» ضمن «المرحلة» المسماة بالشباب[3] تجعل من حجم التحديات وتنوع المسؤوليات التي تواجه الباحثين في الشأن الشبابي ذات طبيعة مركبة وشاملة.

وما يهمنا في هذا الحيز هو إبراز مدى الاختلاف الكائن في النظرة إلى الشباب من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع آخر، مما يعكس دينامية مفهوم الشباب باعتباره مفهوما ليس ثابتا وجامدا وصالحا لكل زمان ومكان.

فإذا كانت فترة الشباب في مراحل سابقة من حياة مجتمعنا تنتهي في سن ما قبل الثلاثين سنة، فإنها اليوم تمتد إلى ما بعد الثلاثين بحكم التحولات الاجتماعية والاقتصادية، وتطور الطموحات، وامتداد سن الدراسة، وتنوع سبل الاندماج الاجتماعي، وتغير الذهنيات والسلوكات، وظهور ما نسميه في علم اجتماع الشباب تمطط أو تمدد مرحلة الشباب، واختلاف روزنامات الدخول إلى الحياة (الزواج، الاستقرار في الشغل، إنجاب الأطفال...).

---

3 - Madeleine Gauthier, Ages des jeunes : un fait social instable, In revue « Lien social et Politques », n° 43, 2000, p. 23-32. Disponible sur Site Web : http://www.erudit.org/revue.

ومهما يكن من أمر التعريفات والتحديدات فما يعنينا في موضوعنا هذا هو التأكيد على نقطة التغير والتحوّل، ثم التركيز على أن فترة الشباب في كل المجتمعات وفي إطار أغلب المقاربات هي فترة مرتبطة بالتنشئة والإعداد والتكوين، هي فترة تدريب واستيعاب للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومحاولة التأقلم معها قصد تحقيق الاندماج الاجتماعي.

2- في مقاربة مفهوم العنف:

منذ البدء لم يكن الإنسان قادرا على العيش بدون خشونة في مواجهة قوى الطبيعة والحيوانات المتوحشة، فهذا النوع من العنف كان شرط الوجود الإنساني، وبالتالي فالشخص الذي لا يتوفر على مقدار من الخشونة والعنف كان مهددا بالموت، وقد اعتمدت تربية النشء في المجتمعات البدائية عموما على الخشونة والفظاظة والقسوة لتهييء الأجيال الناشئة للتحديات التي تنتظرها. فالعنف في هذه الصورة كان ضرورة إنسانية من أجل ضمان البقاء والاستمرار في الحياة الاجتماعية، وهكذا تقوت التكتلات البيبشرية مشكلة بذلك جماعات متضامنة من أجل مواجهة كل الاحتمالات، فاكتسى مفهوم العنف هنا بعدا جماعيا.

لقد حاول الأنثربولوجي الفرنسي Clasters Pierre في كتابه (أركيولوجية العنف - الحرب في المجتمعات البدائية) وضع تصور للعنف في هذه المجتمعات انطلاقا من كون أفرادها مسكونين بهاجس الحروب، ف"الكائن الاجتماعي هو كائن مسكون بهاجس الحرب"[4]، وبالتالي يظل محور التفكير لديه هو فكرة الحرب في حد ذاتها أكثر من الأسباب أو الدواعي لهذه الحرب. والحرب ليست سوى الوجه الأخر والمتطور لعملية الصيد التي اعتمدتها الشعوب البدائية في تأمين حاجاتها الغذائية كشرط أساسي لضمان العيش ونمو الكائن الإنساني، ذلك أن بعض الباحثين يعتبرون أن نشاط الصيد قد تحول مع مرور الوقت من صيد الحيوانات إلى صيد الإنسان نفسه: l'homme à la chasse، انطلاقا من عمليات التعلم والاكتساب المستمدة من عملية الصيد نفسها، فلكي يأكل الإنسان الحيوان عليه أن يقوم بعملية مطاردة ثم قتل الحيوان بطريقة معينة[5]... لكن هذه المقارنة صعبة من الناحية المنطقية، حيث لا يمكن أن نشبه مطاردة الحيوان وقتله التي تمليها ضرورة وجودية بالدرجة الأولى، إذ أن بقاء الكائن الحي يتوقف هنا على هذه العملية، وبين مطاردة الإنسان ومحاربته التي تتحكم فيها النزعة العدوانية المرتبطة بالموقف من الآخر عموما.

---

4 - Pierre Clastres (1977) : Archéologie de la violence. La guerre dans les sociétés primitives, Ed. L'Aube. P.9.

5 - Leroi-Gourham(1982) : Les *Racines du monde : entretiens*, Paris, Belfond, P.45.

وفي نفس السياق يشير العالم النمساوي Conrad Lorenz[6] الحائز على جائزة نوبل، والذي درس على نطاق واسع سلوك الإنسان والحيوان والحياة الحيوانية بما فيها حياة الإنسان والنبات أيضا، إلى كون العنف والعدوانية ضرورة لا بد منها للحفاظ على الحياة قدر الإمكان... وفي هذا الصدد عمل Lorenz على تطوير بعض المفاهيم القريبة من الحقل الذي اشتغل عليه Darwin والمرتبطة بالتنافسية الحادة بين الكائنات الحية life for Struggle في البحث المستمر عن الغذاء، بل إن هذا السلوك نجده حتى لدى النباتات أيضا، لاسيما تلك التي تسعى إلى توسيع مواقعها على حساب نباتات أخرى بأشكال عدوانية ملحوظة.

ومهما تكن من ضرورة إنسانية وحيوانية للعنف عموما، فإنه من اللازم أن نتساءل عن مدى جدوى العنف في المجتمعات المتحضرة، وهل ما تزال هناك ضرورة ماسة إلى نهج السلوك العنيف، ثم ما جدوى الضوابط التي وضعها الإنسان في محاولة منه لتجنب كل السلوكات العنيفة؟

وقبل تناول ما تشير إليه هذه التساؤلات، حري بنا أن نسلط الضوء على المفهوم قدر الإمكان، وعيا منا في ذات الوقت أن هذه العملية بقدر ما هي ضرورية، فإنها لن تمكننا من مقاربة شاملة لمفهوم العنف، بالنظر إلى اتساع مجالاته وتنوع مدلولاته من حقل إلى آخر.

أول ما يجب الانتباه إليه هو التداخل الشديد مفهومي العنفViolence والعدوان Agression، حيث تعتبر بعض الدراسات والأبحاث المرتبطة بهذا الحقل أن العدوان أكثر شمولا من العنف ويحتويه، فالعدوان يشير إلى مجموعة متنوعة من مظاهر السلوك التي قد تتراوح بين مجرد إغاظة الآخرين أو إظهار العداوة لهم إلى الضرب والاعتداء الجسدي. والسلوك العدواني ليس في مجمله مرفوض اجتماعيا، بل هناك ضرورة أحيانا لبعض أشكال السلوكات العدوانية لنمو الشخصية وتوازنها كما تؤكد على ذلك العديد من الدراسات والنظريات النفسية[7].

ومن الواضح أن التمييز بين مفهومي العنف والعدوان اتخذ شكلين رئيسين، الأول

6- اشتهر هذا العالم بنظريته الشاملة حول العدوان من خلال دراسته الطويلة لسلوك الحيوانات المفترسة والأليفة ومقارنتها بالسلوك الإنساني وقد ضمنها في كتابه المترجم إلى الفرنسية:

On Aggression (1966) ; (titre original : « Das sogenannte Böse. Zur Naturgeschichte der A - gression. », Borotha-Schoeler, Wien, 1963) ; *L'Agression, une histoire naturelle du mal*(traduit de l'allemand), Flammarion, Paris (1977)

7- يمكن الرجوع إلى نظريات التحليل النفسي حول علاقة الإحباط بالعدوان وبالخصوص إسهامات Mélanie Klein و Auguste Aichhorn

ينظر إلى العدوان كمفهوم عام، في حين يشكل العنف صورة خاصة من صور العدوان يتميز بالاستخدام المقصود للقوة المادية. والثاني يميز بين العنف والعدوان على أساس الظهور، فالعنف هو سلوك ظاهر يحدث ضررا بالأشخاص والممتلكات. أما العدوانية فهي ميل كامن» فالعدوانية لكي تتحول إلى عنف ينبغي أن يتوفر لها شرط الظهور»[8].

ويزيد من تعقد هذا الارتباط بين المفهومين عندما تتدخل مفاهيم أخرى قريبة منهما كالغضب، الذي يشير إلى المستوى الشعوري أي الانفعالي الذي ينتج عن ردود فعل سيكولوجية داخلية وتعبيرات عاطفية تلقائية تنتج بدورها عن موقف غير سار. والعداوة التي تشير إلى اتجاه سلبي تجاه شخص أو أكثر ينبني على حكم قيمي على الأشخاص.[9] وهذه الحالات من العداوة والغضب تصاحب السلوك العدواني كما تصاحب السلوك العنيف.

ولعل من بين الإشكاليات الجديدة في مفهوم العنف هو التداول الجديد لمفهوم الإرهاب، ودخوله دائرة الاهتمام العلمي والأكاديمي في العقدين الماضيين. فالإرهاب الذي يعتبر استراتيجية للعنف يتم تخطيطها لتحقيق أهداف معينة من خلال بث الرعب في الجمهور الواسع[10]. وقد عرف المعجم الفرنسي Le Robert الإرهاب بأنه "الاستعمال المنظم لوسائل استثنائية للعنف من أجل تحقيق هدف سياسي مثل الاستيلاء أو المحافظة أو ممارسة السلطة، وبصفة خاصة هو مجموعة من أعمال العنف (اعتداءات فردية أو جماعية أو تدمير) تنفذها منظمة سياسية للتأثير على السكان وخلق مناخ بانعدام الأمن". وبالتالي فالإرهاب هو الشكل الأبرز للجريمة المنظمة في ارتباطها بالقضايا السياسية والإديولوجية، وهو بذلك يقترب من مفهوم العنف السياسي ويتجاوزه، إذ أنه قد يمثل تهديدا اجتماعيا ويولد شعورا عاما في المجتمع بالخطر وانعدام الأمن.

وعموما تتفق مختلف التعريفات حول العنف إلى كونه ذلك السلوك الموجه إلى إلحاق الأذى بالآخرين، حيث تعرفه الموسوعة العالمية Stanford بأنه « كل أنواع السلوك سواء كانت

8- قدري حفني: العنف السياسي: رؤية نفسية ، أعمال الندوة المصرية – الفرنسية الخامسة حول "ظاهرة العنف السياسي من منظور مقارن" ، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة 1995، ص. 42

9- المرجع السابق، ص. 44.

10- Jean-François Dortier (2004) : Le dictionnaire des sciences humaines. Ed - tions Sciences humaines. P. 671.

فعلية أو تهديدية، التي ينتج أو قد ينتج عنها تدمير وتحطيم الممتلكات، أو إلحاق الأذى بالأفراد»[11]. وتشير الموسوعة العلمية « Universalis » إلى مفهوم العنف يعني كل فعل يمارس من طرف فرد أو جماعة ضد فرد أو أفراد آخرين عن طريق التعنيف قولا أو فعلا و هو فعل عنيف يجسد القوة المادية أو المعنوية.

ويعرف البعض العنف بأنه « انفجار للقوة التي تعتدي بطريقة مباشرة على الأشخاص وأمتعتهم، أفرادا كانوا أو جماعات، من أجل السيطرة عليهم عن طريق القتل أو التحطيم أو الإخضاع أو الهزيمة»[12].

ويعتبر مصطفى حجازي العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع والآخرين، حيث يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، حين تترسخ القاعدة لديه بالفشل في إقناعهم بالاعتراف بكيانه وقيمته»[13]. ويطرح هذا التعريف مسألة جديدة مفادها أن العنف هو شكل من أشكال الحوار مع الآخر لكن بطريقة مختلفة تماما.

وتثير مختلف التعريفات حول العنف مشكلات نظرية كبرى تستدعي من الباحثين إيجاد مفهوم يستغرق كل صور وأشكال العنف الممكنة. وفي هذا الصدد يستحضر أحد الباحثين أن للعنف ألف وجه، وأن أشكال العنف مثل الأعداد تبدو لا متناهية، فهي دائما جديدة ومتجددة[14]. وهذا ما يعقد مهمة التصنيف الذي يمكن اعتماده للإحاطة بكل أشكال العنف. ومهما يكن فإن التصنيفات المعتمدة اليوم ترتبط أكثر بمجالات العنف وبخصائص وصفات مرتكبيه، فيتم التمييز بين العنف الفردي والعنف الجماعي، العنف المشروع والعنف غير المشروع، العنف المادي والعنف المعنوي، العنف الاقتصادي، العنف الرمزي...، بالنظر إلى كون مدلولات العنف تشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية...

11- Stanford Encyclopedia of Philosophy, Center for the Study of Language and Information, Stanford University, Stanford 2009.

12- جون لوكا: آليات العنف، في أعمال الندوة المصرية الفرنسية الخامسة حول "ظاهرة العنف السياسي من منظور مقارن، مركز البحوث السياسة – القاهرة، ص. 13.

13- مصطفى حجازي (1997): التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص. 253.

14 - جون لوكا: آليات العنف، في أعمال الندوة المصرية الفرنسية الخامسة حول "ظاهرة العنف السياسي من منظور مقارن، مركز البحوث السياسة – القاهرة، ص. 13

ومن المعايير المعتمدة لتصنيف العنف يمكن حصر بعضها فيما يلي:

1 – معيار شكل السلوك العنيف وطبيعته، إذ يمكن تصنيف السلوك العنيف من حيث الشكل إلى إضرابات وتظاهرات، أحداث شغب، شجارات...

2 – معيار الفعل العنيف ودوافعه، إذ يمكن أن يكون للعنف هدف: هل للعنف دافع سياسي، اجتماعي، عرقي، ديني؟

3 – معيار طبيعة القوى التي تمارس العنف، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن عنف الجمهور الرياضي، العنف الطلابي، العنف العمالي..

4 – معيار حجم المشاركين، وهنا يمكن التمييز بين العنف الفردي والعنف الجماعي...

5 – معيار درجة التنظيم، وهنا نميز بين العنف المنظم وغير المنظم، فالمنظم غالبا ما يتم التخطيط له كالعمليات الإرهابية مثلا، والعنف غير المنظم يندلع بصورة عفوية كردود أفعال، كأحداث الشغب في المباريات وغيرها..[15]

3- عنف الشباب في المدن:

تزايد في العقود القليلة الماضية حجم الأبحاث والدراسات المهتمة بالمدينة من قبل علماء الاجتماع في البلدان النامية، ويعكس ذلك في الحقيقة المكانة التي باتت تحتلها المدينة في الفكر السوسيولوجي لدى هذه البلدان، وأيضا طبيعة التحول الذي وقع في الدراسات السوسيولوجية والذي انصب على دراسة المجتمعات المحلية في المدن، مركزا على الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لبعض التشكيلات الاجتماعية داخل المدينة.

لقد شكلت المدينة على امتداد العقود الأولى من القرن العشرين موضوعا للدراسات السوسيولوجية خاصة لدى رواد مدرسة شيكاغو الذين ربطوا بين المدينة والآثار السلبية لها، حيث انصب اهتمامهم على مظاهر التفكك والانحراف والجريمة والعنف والهامشية وغياب الحس الجماعي...

ولقد اعتبر لويس ويرث Wirth Louis أن المدينة أو المجتمع الحضري يتسم – في الظروف العادية– بضعف علاقات القرابة وضعف المكانة الاجتماعية للأسرة واختفاء علاقات الجيرة، وتتجه معظم النساء في المدن إلى العمل، ويميل الناس إلى تأجيل الزواج، وتتميز الأسرة بأنها

15– يراجع في هذا الشأن كتاب: التهميش والعنف الحضري، لمجموعة من الباحثين، الصادر عن مختبر الإنسان والمدينة جامعة منتوي قسطنطينة، الجزائر 2004. ص ص. 44. 45.

أصغر حجما من الأسرة في الريف، ويميل الإنسان الحضري إلى الارتباط بالأشخاص ممن لهم مصالح مشتركة[16].

في المقابل يعتبر البعض أن شكل التفاعلات في الريف تكون في الغالب على مستوى ضيق ولكن بدرجة ملحوظة، واضحة وعميقة، بحيث تتميز بالبساطة والمودة والإخلاص، فالتفاعل يحدث من الزاوية الإنسانية أساسا. أما في الأوساط الحضرية فتتميز بكثرة الاتصالات، ولكن مع ذلك تسود المدينة العلاقات الشخصية التي تتسم بالسطحية والقصيرة المدى والتعقيد والشكلية والنفعية، فالإنسان يتفاعل في المدينة كرقم وكعنوان، لدرجة يمكن معها القول أن سكان المدينة أشبه بالأشباح في علاقاتهم مع بعضهم البعض[17].

وتتميز الحياة في المدينة بتعقدها وتنوع المشكلات التي تواجه الشباب تحديدا فيها، ومن مظاهر ذلك تصدع القيم والمعايير بشكل ملفت، حيث أكدت العديد من الدراسات أن ظاهرة العنف والانحراف هي ظواهر حضرية بامتياز ترتبط بالمدينة وملازمة لها[18]، بل إن أعداد الجرائم والانحرافات تتضاعف كلما انتقلنا من الوسط القروي إلى الوسط الحضري من جهة، وكلما زاد حجم المدينة من جهة ثانية.

وفي هذا الإطار يؤكد Lucian Pye أن عملية التحضر يمكن أن تكون ذات بعد تمزيقي عميق لاسيما في حالة البلدان النامية، حيث أنتج الظهور المبكر والسريع للمراكز الحضرية انقسامات وشروخا عميقة بين عوالم منفصلة للنخب الأكثر حداثة ولسكان القرى التقليدين، وفي كثير من الحالات فإن التحضر السريع قد يؤدي إلى انقسامات وتوترات اجتماعية، اقتصادية ونفسية، وإذا انتقلت إلى المجال السياسي تصبح منبع عدم الاستقرار[19].

و لاشك أن ظاهرة التحضر تحمل في طياتها عددا من المشكلات على جانب كبير من الأهمية، أهمها البطالة وعدم الاستقرار والعنف والجريمة وسيطرة القطاع غير المهيكل،

---

16 - Louis Wirth, Le Ghetto, traduction P.J. Rojtman, In revue Annales géographie, Volume 92, Numéro 510, 1983, PP. 246-247, Disponible sur site web :http://www.persee.fr/web/revues/

17- تجدر الإشارة هنا إلى أبحاث دوركايم Durkheim وزيمل Zimmel وخاصة أبحاث Donald H. Zimme - man

18 - يمكن الرجوع هنا إلى الدراسات والأبحاث التي أجريت على المدينة والجريمة خاصة من قبل رواد مدرسة شيكاغو خاصة أعمال (Ernest Burgess . Shaw et Mac Kay) و أعمال Maurice Halbwachs.

19 - Lycian Pye (1963) : The political implications of urbanisation and the development pr - cess, In Socio-Economic Planning Sciences, Volume 1, December 1967, PP. 117-142 (Site Web : http://www.sciencedirect.com.

وظهور بعض المهن الطفيلية، وعجز القطاع الرسمي عن امتصاص العاطلين، وتزايد سكان المناطق العشوائية.

إن عمليات التحضر الناتجة بدون تنمية شاملة في كثير من البلدان النامية ومنها المغرب، وفي ظل وجود عجز واضح لدى القطاعات الصناعية والخدماتية للحفاظ على وتيرة تتماشى ووتيرة النمو الحضري أدى إلى اختلالات واضحة في هذه المجتمعات، وانعكس سلبا على النسيج الاجتماعي للتجمعات الحضرية، وفاقم من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية مما ولد بيئة «عدوانية» و«عنيفة» تشكل تهديدا قويا للأنظمة السياسية القائمة. وهذه الاختلالات تخيم بظلالها على الشباب تحديدا بالنظر إلى اعتبارات متعددة، منها على الخصوص أن الشباب هو القلب النابض للمجتمع، والعنصر المحرك والمحور الذي تتحرك في إطاره ظواهر التغيير، سواء كانت ثورية أو تحررية أو إصلاحية حتى.

يعيش الشباب في مجتمعاتنا واقعا صعبا لدرجة اعتاد الباحثون على استعمال مفهوم «أزمة الشباب» من منطلق أن الشباب لم يكونوا قبل هذه المرحلة «يواجهون صعوبات كبيرة في الاندماج الاجتماعي، وفي الشغل، والاطمئنان على المستقبل... مثلما هي أوضاعهم الآن، حيث أصبحوا يعانون من انسداد الآفاق في التعليم والتكوين والتشغيل وغيرها من المجالات، الأمر الذي يحول دون تحقيق اندماجهم الشامل في المجتمع»[20].

إن مشكلة سوء التكيف لدى الشباب باتت تفرض نفسها في الكثير من نواحي الحياة الحضرية، فالشعور بالنقص والإحباط والقلق والكآبة والتوتر والغضب... باتت سمات تميز الشباب في المدن، بالرغم من كون هذه الأخيرة زودت الشباب بوسائل اتصال وتواصل لم يقع لها شبيه في تاريخ الإنسانية، وكان من المفروض أن يؤدي هذا الاتصال اليسير إلى التقارب بين الشباب، ولكنه أسهم بشكل أو بآخر في خلق هوة كبيرة بين فئات الشباب، فوضع الشاب الفقير ماديا أو نفسيا يعيش في متاهات العنف والانحراف.

ويعتبر العنف لدى الشباب في الوسط الحضري من أهم المشكلات التي تحتل الصدارة في المجتمع، كما أصبحت تمثل «أزمة» حقيقية للشباب في الكثير من المدن، فقد أكدت بعض الدراسات التي أنجزت على الصعيد الوطني أن العنف هو ظاهرة حضرية بامتياز، إذ يزيد

20- مصطفى محسن (1995): الشباب وإشكالية الاندماج الاجتماعي –مقاربة سوسيولوجية- ضمن كتاب الشباب ومشكلات الاندماج، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 49، ص.44.

بمعدل 12,7% مقارنة بالوسط القروي. كما أنه يخص فئة الشباب تحديدا سواء باعتبارهم ضحايا أو معتدون، إذ أن من أصل 10 حالات من مرتكبي العنف نجد 6 منهم شبابا لا يتجاوز عمرهم 35 سنة. ويتزايد العنف في أوساط الشباب كلما اشتدت الهشاشة الاجتماعية والاقتصادية.[21]

مما سبق ينبغي التأكيد على أن هناك عوامل عديدة ساهمت في تنامي العنف لدى الشباب، منها ما هو اقتصادي مرتبط بتدهور المستوى المعيشي وقلة فرص الشغل، حيث إن «إقصاء الشباب عن سوق الشغل يعد السبب الاقتصادي في اغترابهم وانعزالهم عن البناء الاجتماعي، الذي يولد لديهم ثقافة فرعية، تختلف عن ثقافة الجماعة، قد تكون عدوانية تجاه أولئك الذين صدوهم، فالانعزال الاجتماعي ينجم عن طريق اقتصاد غير وثيق الصلة بظروف المجتمع وفئاته المختلفة وتحديدا الفئة النشيطة من السكان».[22]

ومنها ما هو تربوي تعليمي حيث تؤكد التقارير الدولية أن الوضعية التربوية في مجتمعاتنا لم تتغير بالرغم من مجانية التعليم، وتمكين الفئات الفقيرة من فرص التعليم، «فتوفير التعليم العام والجامعي لا يقوم على مشروع فعلي أو استراتيجية نمائية حقيقية لبناء الاقتدار المعرفي، بل هو عبارة عن تنازلات من الدولة لمنع تفاقم المآزم».[23]

ومنها ما هو أخلاقي، مرتبط بالتغيرات المتسارعة في منظومة القيم، هذا التغير الذي يتجلى أمامنا بما نشهده في المجتمع من تحولات في التصورات والسلوكات والمواقف في أوساط الشباب تحديدا، مما يطلق عليه اليوم ب«أزمة القيم لدى الشباب».

4- التهميش ورد الفعل العنيف

يعد مفهوم التهميش أو الهامشية من المفاهيم السوسيولوجية المتداولة حديثا، والمقصود بالهامشية الاجتماعية تلك الفئات التي تقع على هامش البناء الطبقي للمجتمع، ويعود هذا المفهوم إلى إسهامات الاتجاهات السوسيولوجية الحديثة التي برزت في دول أمريكا

---

21 Voir les résultats d'étude de la violence à l'égard des femmes au Maroc, Haut Commissariat au Plan, Janvier 2011.

22- علي بوعناقة (2007): الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن الحضرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص.116.

23- مصطفى حجازي (2005): الإنسان المهدور – دراسة تحليلية نفسية اجتماعية – المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص. 212.

اللاتينية، وقد ابتكرها علماء الاجتماع بالمكسيك نظرا لاتساع نطاق الهامشيين من مختلف الفئات التي تعانى البطالة والفقر وانعدام المشاركة في الأحزاب السياسية واستبعادهم من أجندة السياسات الاقتصادية...

ومن الدراسات التي اهتمت بوضع الهامشية لدى الشباب نستدل بما نقله Olivier Galland في كتابه la sociologie de la jeunesse الصادر سنة 1997 والذي يعتبر أن أي نقاش حول موضوع الشباب يجب أن يستحضر بعدين أساسيين غير متجانسين، يتعلق البعد الأول بالحياة العامة Vie publique تتدرج في إطاره ثلاثة أزمنة: زمن مدرسي طويل نسبيا، تليه مرحلة الهشاشة Phase de précarité ثم مرحلة العمل. في حين يشتمل البعد الثاني المتعلق بالحياة الخاصة مرحلة الحياة مع الأبوين، ومرحلة الحياة التي يعيشها الشاب بمفرده La vie solitaire ثم مرحلة الزواج أو الارتباط la vie en couple[24].

وحسب حجازي فإن الشباب على العكس مما يشيع في الأدبيات ليسوا شريحة واحدة، بل هم فئات لكل منها ظروفها وخصائصها وإمكاناتها وأزماتها، ويوزعون عموما بين:

1 -الفئة المحيطة المترفة وهي قلة قليلة؛

2 - الفئة المنغرسة اجتماعيا ومدرسيا، وهي فئة كبيرة طامحة لبناء مكانتها وأخذت حظها من الفرص؛

3 - فئة الشباب المهمش «الظل»، وهي الفئة الفائضة عن الحاجة، وبالتالي المستغنى عنها، والتي لا تدخل في حسابات السلطة ومخططاتها، إلا في مجال الحذر والقمع، وهي الفئة المهدورة.[25]

والهامشية كظاهرة سوسيولوجية تعد أحد أبرز الأعراض المتصلة بالبيئات الاجتماعية المتخلفة، وهي التي تعبر عن اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، وصعوبة التكيف الاجتماعي لبعض فئاته. فمن هو الشخص المهمش وفق ما تطرحه النظريات السوسيولوجية؟

يتصف الشخص المهمش بعدد من الخصائص التالية[26]:

---

24 - Olivier Galland (1997) : la sociologie de la jeunesse, Paris, Ed. Armand Colin. P.23.

25- مصطفى حجازي (2005): الإنسان المهدور – دراسة تحليلية نفسية اجتماعية – المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص ص. 207،208.

26- إسماعيل قيرة (2004): علم الاجتماع الحضري ونظرياته، منشورات جاكمة منتوري قسطنطينة، ص. 36.

1 – الشخص المهمش هو ذلك الذي يحتل موقعا متدنيا في إطار نظام التدرج الاجتماعي؛

2 – هو كل إنسان يشعر بالغربة في وطنه؛

3 – هو الذي لا يتمكن من الوصول إلى حقوقه؛

4 – هو خارج فعالية السلطة أو الدولة وليس لديه أي تأثير في المجتمع، وليس له دور محدد.

لكن من هو الشباب المهمش تحديدا؟

«إنه فئة اجتماعية ذات خصائص عمرية محددة، مبعدة من العملية الإنتاجية، لا تساهم في المجال السياسي، تمارس مهنا توصف بالهامشية في المدن،وتعتقد أن الدولة قد تخلت عنها، بل إنها تمارس ضدها القهر والقمع والعنف أحيانا، ولهذا نجد هؤلاء الشباب يخربون ممتلكات الدولة في كل حركة احتجاجية، ويحلمون بالهجرة خارج الوطن».[27]

وعلى هذا النحو يعمل البعض على تقسيم فئة الشباب المهمش إلى قسمين[28]:

✓ القطب الهامشي من الشباب: وهم الذين يتشكلون من «الحثالة الاجتماعية» منحرفون جانحون متسولون...

✓ القطب الانسحابي: هو أولئك الشباب الجالسون على خط الساحة يتفرجون، والذين يعتقدون أن مجتمعهم تخلى عنهم، ويعمل على قطع الطريق أمام مشاركتهم في الحياة العادية، ونجد من بينهم كل أصناف الشباب الذين يواجهون مشكلات حقيقة في الاندماج الاجتماعي.

ولكن مع ذلك يجب التمييز بين ثلاثة متغيرات تبدو متداخلة أحيانا لدى شرائح الشباب: التهميش وعدم الرضا وعدم التكيف، هذه المتغيرات قد تتضافر فيما بينها لدى هذه الشرائح لتشكل لديه قناعات راسخة بلاجدوى كل شيء تقريبا.

وهذا بالضبط ما يمكن تسميته بقلق المستقبل لدى الشباب الذي يستثار بفعل عوامل اجتماعية بالأساس، حيث «إن تدهور الأوضاع داخل المجتمع تثير التوجس والخوف من الأيام القادمة التي ستعمد إلى تغيير أهداف الفرد الحياتية، فضلا عن أن استمرار حالة الاضطراب وعدم الاستقرار داخل المجتمع يقلل من فرص الحراك الاجتماعي».[29]

27- عبدالحليم مهورباشة ، الدولة وتهميش الشباب، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد 10، شتنبر 2010، ص.235.

28- إسماعيل قيرة، مرجع سابق، ص.37.

29- مجموعة من الباحثين (2006): الشباب العربي ورؤى المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ص.115.

وفي هذا الإطار تبرز بعض الأبحاث التي أنجزت على عدد من الطروحات المرتبطة بالعنف لدى الشباب، فالشعور بالنبذ والتهميش من لدن المجتمع الذي لم يوفر لهم الشروط اللازمة لممارسة حياة كريمة يجعل هذه الفئات تتميز بسيادة اللغة الحركية على جميع المستويات، حيث يعاني أفرادها الحرمان المادي والمعنوي. فانتشار الأمية في أوساط هذه الفئات أو تدني مستواها التعليمي تجعلها تعيش في غيتو لغوي linguistique Ghettos نتيجة ضعف قدرة أفرادها على الترميز Codification أي التعبير الرمزي عن رغباتها وتطلعاتها وفي علاقتها بالآخرين والمجتمع عموما[30]. لذا يقول Bernstein الذي قام بتحليل ظاهرة الفقر اللغوي لدى الفئات المهمشة والمحرومة، بأن لغتهم تتميز بنوع من التصلب والقطعية و«العنف اللفظي» وتظل مرتبطة بالواقع المحسوس وغياب العلاقات السببية[31].

ومن هذا المنطلق فإن سلوك أبناء الفئات المحرومة والمهمشة يغلب عليه طابع الحركة، باعتباره الأسلوب الذي يتناسب مع شخصيتهم وظروفهم الاجتماعية، فهو يتميز حسب حجازي «بسيادة اللغة الحركية في التعامل مع العالم والآخرين، وسرعة إفلاس الحوار الذي يتحول إلى اشتباك بالأيدي مرورا بالشتائم والمهاترات... والعجز عن عمليات التفكير المجرد[32]، ومما سبق ينبغي التأكيد على كون العنف اللفظي يسبق العنف الحركي (المادي)، بل يعتبر الثاني مكملا للأول.

وهذا ما ذهب إليه أيضا الباحث الكندي Cusson Maurice حين أعتبر أن فعل العنيف الذي يقدم عليه الشاب يحمل في طياته عدة دلالات، فبالنظر إلى التهميش والحرمان الذي يعانيه، وشعوره بالحرمان والنبذ والإهمال من طرف الأسرة والمجتمع بصفة عامة، ينتابه شعور بالملل والرتابة، وفعل العنف هو الذي يخرجه من هذه القوقعة ويعطي لوجوده معنى، ويجعله يحقق انتصارات وهمية وإن كانت على حساب الآخرين[33]. ويعتبر البعض أن النزعة التدميرية لدى الشباب ما هي إلا انعكاس لحالة الخوف الدائمة التي تصاحبه، فيحاول

---

30 - Estelle Liogier, La variation stylistique dans le langage d'adolescents de cité, In revue « La - gage et société » N° 128 / 2009, Site web : http://www.cairn.info/revue-langage-et-societe.

31 - Basil Bernstein (1975) : Langage et classes sociales. Codes sociolinguistiques et contrôle social, présentation de Jean-Claude Chamboredon , Paris, Ed. Minuit. P.101.

32- ذكره محمد عباس نورالدين (2004): انحراف الأطفال والشباب، شركة النشر والتوزيع المدارس، البيضاء، ص.13.

33 - Maurice Cusson (1989) : Délinquants pouquoi ?Ed. Hurtubise , Bibiothèque québécoise, Canada, P.93-94.

التخلص من هذا الشعور بإثارة الخوف لدى الآخرين، وهذا ما قد يفسر اللجوء المتعمد إلى التخريب، إثارة الفوضى في الشارع، الإعتداء على الآخرين... دونما هدف محدد. إنه نوع من الخطاب – بحسب تعبير عالم النفس الفرنسي Lacan – الذي يوجهه للآخرين من أجل الاعتراف به كإنسان، فكأنه يقول لهم : إذا لم أحظ بحبكم واهتمامكم فلتخافوا مني على الأقل، إنه حوار عنيف مع الآخر إذن، يحاول من خلال انتزاع الاعتراف به كإنسان[34].

إن لجوء الشباب إلى العنف والعدوان هو بمثابة نوع من المغامرة للخروج من جو الملل والرتابة في مجتمع لم يتح لهم الفرصة الكافية لهذه «المغامرة الشبابية» بشكل آخر وعلى مستويات عدة (المشاركة، الاختيار،المساهمة في صنع القرار، خوض التجارب...). فالإقدام على كثير من أشكال العنف يمنح هؤلاء الشباب شعورا بالتفوق وتأكيد الذات. والإفلات من المغامرة التي أقدموا عليها يخلق لديهم شعورا بالاستمرار في العيش في ظل «شرعية جديدة» على حد تعبير العالم الفرنسي Lebreton الذي يرى أن بإقدام الشاب على المجازفة والخطر»يعقد حلفا رمزيا مع الموت الذي يمنحه الشعور بالوجود». والفعل المغامر يشعر الشاب بالانتماء إلى أفراد جماعته الذين يشاركونه في المغامرة، وفي نفس الوقت يمنحه شعورا بالتميز والتفرد.[35]

خلاصة:

تشكل ثقافة العنف في الأوساط الحضرية جزء لا يتجزأ من الثقافات الفرعية التي نجدها لدى شرائح وفئات الشباب، بل إنها أحد التعبيرات الأكثر وضوحا لديه، تتفاعل مع باقي الأشكال التعبيرية الأخرى لتعكس لنا واقع التهميش والتردي الذي يعيشه الشباب في مجتمعاتنا على مختلف الأصعدة، ولعل الحركات الشبابية في الوطن العربي المطالبة بالتغيير وبالإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليست في الواقع سوى الوجه الآخر للرغبة القوية في تجاوز معطيات اللحظة الراهنة التي تسم الوضع الشبابي القائم، ومواجهة أشكال العجز لدى النخب في مواجهة التحديات الكثيرة لمتطلبات التنمية داخل هذه المجتمعات. إنه نوع من الإحساس بالمسؤولية واستشراف للمستقبل لدى الشباب ومحاولة لإزالة ما يكتنف هذا «القادم» من غموض بإرساء أسس المشاركة وحق الاختيار والمساهمة الفاعلة في تقرير مصير هذه المجتمعات وفق رؤيا شبابية تريد أن تجد لها مكانة اجتماعية ضمن عالم الكبار.

---

34 - Op.cit. P.96.

35- محمد عباس نورالدين، مرجع سابق، ص. 15.